

عبدالله باشا السعدون في مواجهة فساد السلطة العثمانية في الأحساء

اتسمت فترة الحكم العثماني الثاني في الأحساء (1288م - 1331هـ/1871م - 1913م) بانعدام الأمن وانتشار الفساد الإداري والمالي بين موظفي الدولة العثمانية في هذه المنطقة البعيدة عن السيطرة المركزية للإمبراطورية العثمانية وفي ظل تراجع نفوذ الدولة العثمانية¹.

إذ لم يمض سوى فترة وجيزة على حملة أحمد مدحت باشا على الأحساء والقطيف والتي قادها محمد نافذ باشا والتي وعدت الأهالي باستتباب الأمن والقضاء على قطاع الطرق والصوص، حتى عاد الوضع الأمني إلى التدهور مجدداً لعدة أسباب منها تناقص عدد الجنود الموجودين في اللواء بسبب فتك الأمراض المستوطنة بالمنطقة مثل الملاريا والحمى والكوليرا، ونقص العناية الصحية². وكان السبب الثاني هو عدم معرفة السلطات العثمانية بكيفية التعامل مع القبائل البدوية التي تثير المشاكل وتعتبر قطع الطرق مورد رزق لها. والسبب الثالث الرئيسي هو الفساد الإداري الذي راح يضرب بأطنابه في صفوف السلطات المحلية العثمانية ابتداءً من المتصرف وقادة الجند ومأموري السجن ومسؤولي الحسابات والضرائب، إذ كان هؤلاء يتقاسمون غلة السرقة والنهب مع قطاع الطرق والصوص ويتواطؤون معهم.

ولذا فقد توالى الاخفاقات الأمنية واحبط الأهلي من الأداء السيئ للسلطات العثمانية، وبالطبع قاد هذا الوضع إلى تدهور القطاع الاقتصادي والزراعي بالمنطقة ففي شهر جمادى الأولى 1288هـ قام أفراد إحدى القبائل بمهاجمة قافلة تجارية قادمة من الهفوف إلى العقير ونهبها وتكررت حوادث متشابهة في شهر رجب 1288هـ. ولم يقتصر الأمر على نهب القوافل بل تعدى ذلك إلى نهب المحاصيل الزراعية وتخريب المزارع التي تعتبر عماد الاقتصاد في واحتى الأحساء والقطيف.

ولم يكن الأمر محصوراً بذلك بل تعداه إلى إرهاب التجار في متاجرهم ومهاجمة السكان في منازلهم وابتزازهم كما قام به المدعو (محسن بن رزين) والذي يعتبر أكبر لصوص الأحساء، إضافة إلى شخص آخر أسمه (النويدس) الذي تخصص في اللصوصية وسرقة المنازل³.

في ظل هذا الوضع الأمني المتردي بزغ نجم أحد الشخصيات الأحسائية الوطنية وهو عبدالله باشا السعدون والذي كان له مواقف مشهورة في مكافحة فساد السلطة والقضاء على قطاع الطرق والصوص وإرسال الخطابات العديدة إلى السلطان العثماني للشكوى من فساد المتصرفين والقادة العسكريين وسوء إدارتهم

ولد عبداً باشا السعدون في مدينة المبرز عام 1235هـ/1819م، ويرجع أصل أسرة السعدون في الأحساء إلى قبيلة بني خالد المعروفة والتي حكمت الأحساء لفترات متعددة، وهم شيوخ السياس من بني عقيل بن عامر من قيس عيلان العدنانية.

وقد كان الشيخ عبداً أكبر من مجرد عمده لحي السياس، إذ كان لديه قوة عسكرية من أهالي المبرز وكان محط احترام السلطات العثمانية، وهو حاكم مدينة المبرز، كما عرّفه لوريمر في "دليل الخليج العربي": (الشيخ عبداً بن سعدون أحد سكان حي السياس بمدينة المبرز وهو حاكم المدينة كلها من سلالة حكامها القدامى ويتصل نسبه إلى بني خالد)⁵. وذكره الدكتور عبداً السبيعي بقوله: (عبداً السعدون حاكم لمنطقته وله علمه الخاص وسنده من القبائل البدوية)⁶.

في هذه الأثناء، ولضعف الولاة والعساكر العثمانية، فقد ساهم الشيخ عبداً السعدون في حماية الأحساء والأهالي، وحماية القوافل التجارية المتجهة من العقير إلى الهفوف⁷، ومتابعة المجرمين والقضاء عليهم، وحفظ الأمن في المنطقة، ومنها ما قام به من مساعدة المتصرف محمد عاكف باشا في القبض على المجرم محسن بن رزين ورفاقه وتنفيذ حكم الإعدام بهم، بالرغم من تساهل المتصرف معهم.

والوثيقة التالية(وثيقة 1) الموجهة من اعيان البلاد إلى السلطات العثمانية تبرز دور عبداً باشا السعدون في القضاء على المجرم محسن بن رزين وزمرته التي عاثت في البلاد فساداً وإجراماً.

(صورة وثيقة رقم 1)

ولذا فقد ارتفعت مكانته عند السلطات العثمانية العليا، وهذا مما أوغر صدور الحساد والمنتفعين من الفساد عليه، فاعدوا خطه مضادة لتشويه سمعته وأشاعوا انه يقوم بأعمال تنتقص من هيبة الدولة وانه يحرض الأهالي على التمرد والثورة عليها، وذلك لحث السلطات العليا على اصدار فرمانات ضده وطلب تهجير ونفيه من الأحساء.

وقد أبلغ نائب المتصرف عبداً باشا السعدون بهذه الخطة، وانتشر الخبر عند الأهالي الذين قاموا بإعداد خطابات عديدة مرسلة للسلطان العثماني دفاعاً عنه والوثيقة التالية (وثيقة 2) هي إحدى هذه الخطابات.

(صورة وثيقة رقم 2)

وقد أثمرت هذه الخطابات عن إفساد خطة الوشاة ومعرفة السلطان العثماني بمكانته وجهوده وأن تقارير الولاة والمتآمرين عنه كانت مخض كذب وافتراء. ولذا تم دعوته إلى اسطنبول معزراً مكرماً وأنعم عليه بلقب باشا ورتبة أمير الأمراء8، وأعطى علماً خاصاً به. والذي على ضوئه أرسل الأهالي خطابات شكر للدولة على إنصاف الشيخ عبداً وإكرامه وتقدير مكانته، والوثيقة التالية (وثيقة 3) هي إحدى هذه الخطابات. وكذلك الوثيقة التالية (وثيقة 4) مرسلة من أهالي الأحساء ومصدقة من كل من مختار محلة الشعبة ومختار محلة المقابل ومختار محلة العيوني ومختار محلة السياب بمدينة المبرز، إلى السلطان عبدالحميد الثاني في هذا الموضوع. كذلك ورد في كتاب "من وثائق الأحساء في الأرشيف العثماني": (عبداً السعدون: من شيوخ الأحساء وأعيانها في تلك الفترة، عمل رئيساً للأملك السنية فيها، زار استانبول واستقبل بحفاوة، بناء على دوره في توفير الأمن لمنطقة الأحساء)9.

توفي عبداً باشا السعدون مطلع عام 1326هـ/ 1908م، مما مكن السلطات الفاسدة في التماذي في فسادها والتآمر مع اللصوص وقطاع الطرق لنهب وتخويف الأهالي إلى درجة أن عمّد الأهالي إلى حراسة بيوتهم وممتلكاتهم بأنفسهم وكانوا يقبضون على اللصوص ويسلمونهم للسلطات والتي تقوم بإطلاق سراحهم بعد فترة وجيزة.

لذا اتفق أهالي الأحساء بجميع فئاتهم وانتماءاتهم المذهبية على التخلص من السلطات العثمانية

والكتابة إلى الملك المؤسس لإنقاذهم من هذا الوضع المتردي، فتم بحمد الله تعالى دخول الملك عبدالعزيز للأحساء وطرد القوات العثمانية فيها سنة 1331هـ / 1913م واستتب الأمن والأمان في ربوع الأحساء بفضل القيادة الحكيمة للملك عبدالعزيز طيب الله ثراه.

ونظراً لما تمتع به الشيخ عبداً باشا السعدون رحمه الله تعالى من شعبية جارفة بين الأهالي نظراً
لموافقة الوطنية فقد رثاه العديد من الشعراء ومما قاله الشاعر عبدالرحمن العودة في رثائه عندما
علم بوفاة وهو في فطر10:

أوحشت لوطان وأظلم الحسا

غاب بدره واختفى أسفا أسيف

عقب ما نور بنوره للبلاد

انكسف ياحيف ياريف الضعيف

مزبن الجاني مجير لمن لجأ

نصرة المظلوم كهف للمخيف

ماحلى ذيك النواظر والحجاج

والمحيا لا لمع بدر شريف

ما كل البرطيل عمره والحرام

والمكارم خصلته شخص نضيف

لا وطا الفحشا ولا داس الملام

عن جميع الشين والفحشا عفيف

لا جنا الجاني وجا عنده ذليل

يرحمه ويقول وش سوى الضعيف

لو زجر وأرعد سحابه ما يبل

داخلي الصوف من تحت الشني

لا رأيت الزجر عنده والوعيد

فانت آمن منه عدله ما يخيف

عايزن الشيخ في هذا الزمان

فايق الأقران جملة والصنيف

بالكرم موصوف بابيه لم يزل

حاميا ورده على هذا يكيف

ما حد شرع لبابه بالحسا

غير بوسعدون جاعل له مضيف

مدهل للضيف بوسعدون دون

كل سكان الحسا وأهل القطيف

هو صبيب لي حبيب لي لبيب

لا رآني من بعيد لي يقيف

آه وا قلبي غدى عقبه هشيم

مثل عشب هيضه هيف المصيف

ما رأت عيني ذكاته في الأنام

عارف العارف للعارف عريف

راح للسلطان هديه والخطوط

وأعجب السلطان هديه للتحيف

وأغمره باحسان كل شهر معاش

أميه وعشرين مرصوفه رصيف

ما حد سوى سواته بالعزوم

طوع العدوان طاعو له عسيف

ما رمى راسه لحكام الزمان

مرد منهم ظاهر ما له وصيف

قاسيا راسه وفي راسه معوب

للمعوب صعب وللضعيفين ريف

ما حد حاله ابحالات الحياة

كلما كادوه نجاه اللطيف

له يبرمون المكاييد كل حين

وينقض المبروم بالراي المنيف

لين ربه وصله دار الخلود

يرحمه باللفظ حيثنه لطيف

رحمة الله توصله دوم الدوام

في جنان الخلد بستانه ينيف

راح وأبقى له ثنا مثل السراج

يشتعل في الناس لو غطوه شيف

ارتحل من عقب ذا فوق الهجين

صيعري كالف حاله نحيف

مدخر عندي إلي وقت اللزوم

مثل هذا اليوم ما حازه رديف

ما عليه إلا السفايف والخروج

أو زهابه يوم أو لبس خفيف

راكبه لازال في قلبه سرور

من حسن ممشاه والدل الطريف

كن حالوب المطر حذق الحما

من خلاف الخف أو دمع الدنيف

ايتوحا راكبه صوت غريب

طارق لأذنيه من حمو الوصيف

من قطر تنشر الي بان الصباح

والظهر تلفي على شيخ عفيف

بالتخلف انص مخلوف الكرام

خص به سعدون يا نعم الخليف

وانت واقف مد له مني كتاب

قل عزى وتسليم من قلب صخيف

العزى لي منك ومني العزى

باغي فيك الخلف عقب الوليف

وااا في السياس بالعموم

في مساواة القوي ويا الضعيف

هم جناح الطير في يوم الهداد

لا اختلف ريشه يعوقه بالرفيف

وللحمولة التفت راع العضود

لا صفوا لك فانت للأعداء تخيف

والختم ملوا على سيد الورى

مالعت ورقا على فرقا الوليف